أنا أرعى الضعفاء

قصة محمد مكرم بلعاوي
رسوم إياد عيساوي

يُحِبُّ زَيْدٌ لَعِبَ كُرَةِ القَدَمِ مَعَ أَصْدِقَائِهِ فِي أَوْقَاتِ فَرَاغِهِ ، فَهِيَ رِيَاضَتُهُ المُفَضَّلَةُ، بِهَا يُقَوِّي جِسْمَهُ ، وَيَسْتَمْتِعُ بِحَرَكَاتِهَا الجَمِيلَةِ ، وَصُحْبَةِ الكَثِيرِ مِنَ النَّاسِ .

وَكُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ صَلاَةِ العَصْرِ ، يَنْطَلِقُ زَيْدٌ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَصْدِقَائِهِ ، وَقَدْ خَفَّ حَرُّ الشَّمْسِ إِلَى قِطْعَةِ أَرْضٍ نَظَّفُوهَا ، وَجَعَلُوهَا مَلْعَباً ، خَارِجَ حَيِّهِمْ ، لِيُمَارِسُوا هِوَايَتَهُمْ بَعِيداً عَنْ خَطَرِ السَّيَّارَاتِ وَالبُيُوتِ .

وَعِنْدَمَا يَصِلُونَ إِلَى الْمَلْعَبِ يَلْتَقُونَ بِزُمَلاءٍ لَهُمْ فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَيَنْقَسِمُونَ إِلَى فَرِيْقَيْنِ ، يَلْعَبَانِ ، فَمَرَّةً يَغْلِبُونَ ، وَمَرَّةً يُهْزَمُونَ ، حَتَّى يَنَالَ مِنْهُمُ الْعَطَشُ وَالتَّعَبُ ، وَقَبْلَ أَذَانِ الْمَغْرِبِ يَتَوَقَّفُونَ عَنِ اللَّعِبِ ، وَيُصَافِحُ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخَرَ ، وَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ كَيْ يَغْتَسِلُوا وَيَرتَاحُوا .

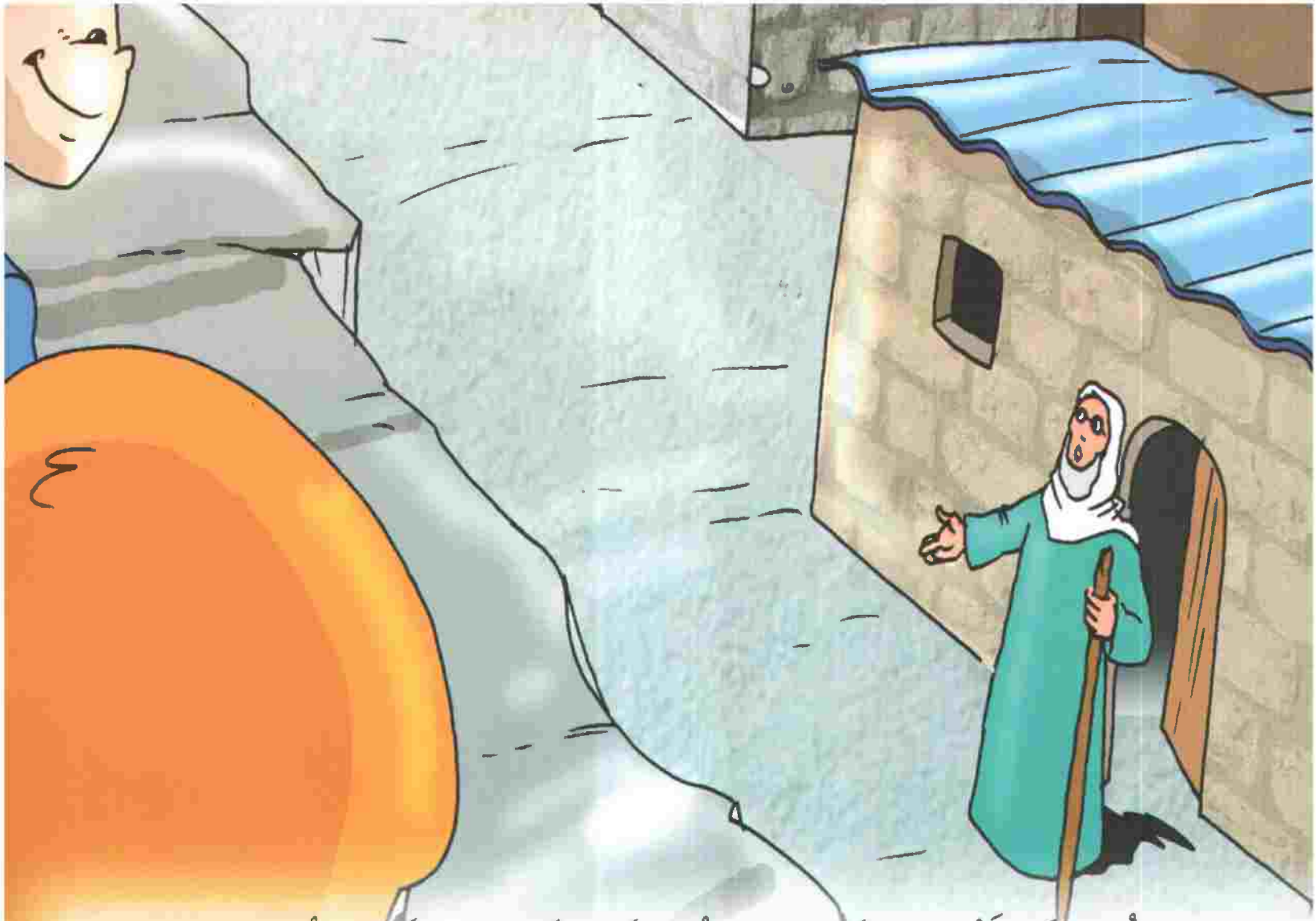

وَعِنْدَمَا يَصِلُونَ إِلَى أَطْرَافِ الحَيِّ يَرَوْنَ كُوخاً قَدِيماً مُنْخَفِضاً ، سَقْفُهُ مِنَ الصَّفِيْحِ ، فَيَلْتَقِطُونَ الحصَى عَنِ الأَرضِ ، وَيَقْذِفُونَها عَلَى سَقْفِ الكُوخِ فَتُحْدِثُ قَرْقَعَةً مُزعِجَةً، يَخْرُجُ بَعْدَهَا شَيْخٌ أَعْمَى يَسْأَلُ: مَنْ هُنَاكَ ؟.. لَكِنَّ الأَولَادَ يُتَابِعُونَ الرَمْيَ والشَّيْخُ مُحْتَارٌ فِي أَمْرِهِ !.. ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ وَهُمْ يَضْحَكُونَ .

وَذَاتَ يَوْمٍ اقْتَرَحَ أَحَدُ أَصْدِقَاءِ زَيْدٍ أَنْ يَلْعَبُوا يَوْمَ الجُمُعَةِ صَبَاحاً بَدَلَ اللَّعِبِ وَقْتَ العَصْرِ، لأَنَّهُ يَوْمُ عُطْلَةٍ، وَهَذَا مَا حَصَل، لَكِنَّهُمْ عِنْدَمَا عَادُوا مِنَ اللَّعِبِ أَخَذُوا يَرْمُونَ الحَصَى عَلَى سَطْحِ كُوخِ الشَّيْخِ الأَعْمَى كَعَادَتِهِمْ، لَكِنَّ المُفَاجَأَةَ الكُبْرَى، عِنْدَمَا لَمْ يَخْرُجِ الشَّيْخُ هَذِهِ المَرَّةَ، لَكِنْ خَرَجَ أَبُو زَيْدٍ.

خَذَ أَبُو زَيْدٍ يَتَلَفَّتُ يَمِيناً وَيَساراً لِيَرَى مِنْ يَرْمِي الحصَى ، وَعِنْدَمَا رَآهُ زَيْدٌ اخْتَبَأَ خَلْفَ

صْدِقَائِهِ ، ثُمَّ وَفِي لَمْحِ البَصَرِ أَخَذُوا يَرْكُضُونَ بُكُلِّ قُوَّتِهِمْ هَرَباً مِنَ المكَانِ، وَزَيْدٌ يَدْعُو

لله تَعَالى أَلَّا يَكُونَ وَالِدُهُ قَد رَآهُ ، وَيَسْأَلُ نَفْسَهُ : مَا الَّذِي أَتَى بِوَالِدِهِ إِلَى هَذَا المكَانِ ؟!..

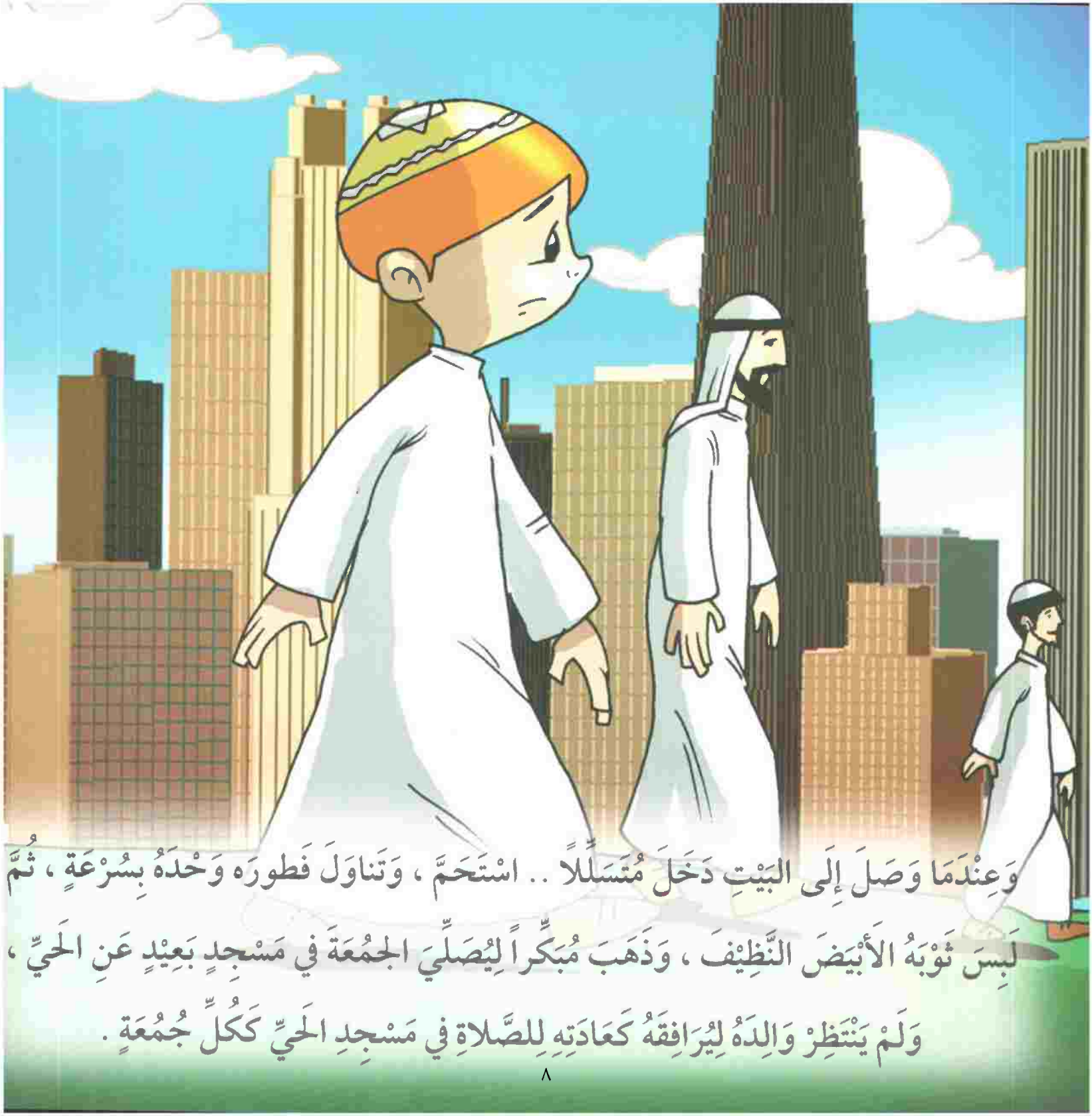

وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى البَيْتِ دَخَلَ مُتَسَلِّلاً .. اسْتَحَمَّ ، وَتَناوَلَ فَطورَه وَحْدَهُ بِسُرْعَةٍ ، ثُمَّ لَبِسَ ثَوْبَهُ الأَبْيَضَ النَّظِيْفَ ، وَذَهَبَ مُبَكِّراً لِيُصَلِّيَ الجُمُعَةَ في مَسْجِدٍ بَعِيْدٍ عَنِ الحَيِّ ، وَلَمْ يَنْتَظِرْ وَالِدَهُ لِيُرَافِقَهُ كَعَادَتِهِ لِلصَّلاةِ في مَسْجِدِ الحَيِّ كَكُلِّ جُمُعَةٍ .

وَعِنْدَمَا أَذَّنَ المؤَذِّنُ وَصَعِدَ الخَطِيبُ المِنْبَرَ، كَانَتْ خُطْبَةُ ذَلِكَ اليَوْمِ عَنْ رِعَايَةِ الضُّعَفَاءِ، وَالاهْتِمَامِ بِهِمْ ، وَعَدَمِ الإِسَاءَةِ إِلَيْهِمْ ؛ لأَنَّ ذَلِكَ يُغْضِبُ اللهَ تَعَالى ، حَتَّى إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانَا يَتَسَابَقَانِ لِخِدمَةِ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ عَمْيَاءَ .. خَجِلَ زَيْدٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَظَنَّ أَنَّ الإِمَامَ يَقْصِدُهُ بِكَلامِهِ ، فَخَرَجَ مِنَ المسْجِدِ فَوْرَ انْتِهَاءِ الصَّلاةِ .

لَمْ يُرِدْ زَيْدٌ أَنْ يَرجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ مُبَاشَرَةً مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ وَالِدُهُ رَآهُ وَهُوَ يَرمِي الحَصَى عَلَى كُوخِ الشَّيْخِ، فَأَخَذَ يَمْشِي فِي الشَّوَارِعِ الخَالِيَةِ مِنَ المارَّةِ وَالسَّيَّارَاتِ بِسَبَبِ العُطْلَةِ، حَتَّى تَعِبَ، وَعِنْدَمَا رَجَعَ إِلَى المَنْزِلِ وَجَدَ جَمِيعَ أَفْرَادِ العَائِلَةِ مُجْتَمِعِينَ عَلَى طَعَامِ الغَدَاءِ. فَنَادَوهُ لِيُشَارِكَهُمُ الغَدَاءَ، لَكِنَّهُ رَفَضَ وَذَهَبَ لِيَجْلِسَ فِي غُرفَتِهِ وَحِيداً.

بَعْدَ انْتِهَاءِ الطَّعَامِ سَمِعَ زَيْدٌ قَرعاً عَلَى بَابِ غُرفَتِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ وَالِدُهُ وَهُوَ يَحْمِلُ صِينِيَّةَ طَعَامٍ بِيَدَيْهِ ، وَوَضَعَهَا أَمَامَ زَيْدٍ عَلَى السَّرِيرِ ، وَسَأَلَهُ عَمَّا حلَّ بِهِ هَذَا اليَوْمَ، إِذْ إِنَّهُ لَمْ يَرَهُ فِي الصَّبَاحِ، وَلَمْ يَذْهَبْ مَعَهُ إِلَى صَلاةِ الجُمُعَةِ كَعَادَتِهِ ، وَلَمْ يُشَارِكِ العَائِلَةَ طَعَامَ الغَدَاءِ أَيْضاً .

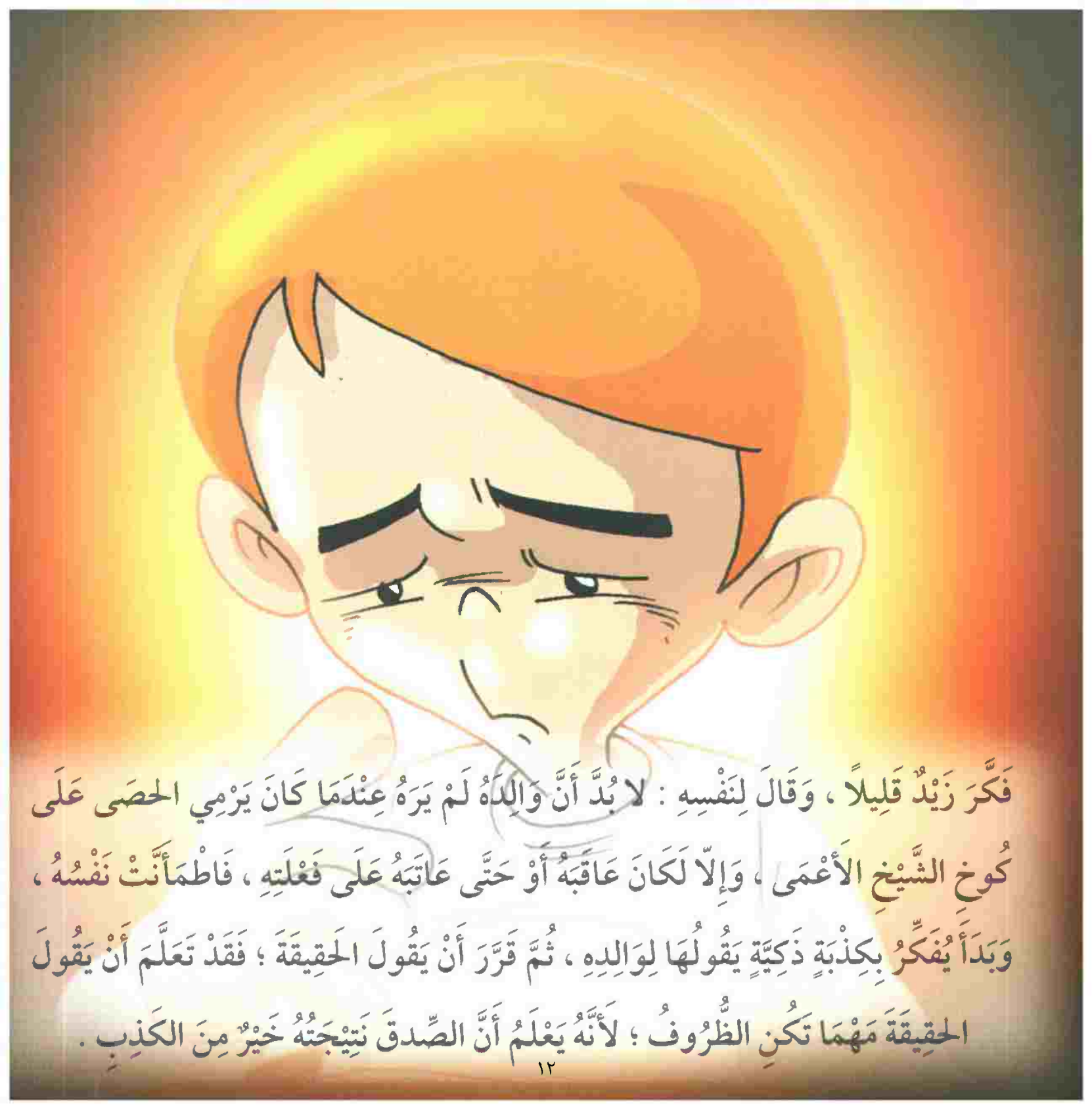

فَكَّرَ زَيْدٌ قَلِيلاً ، وَقَالَ لِنَفْسِهِ : لا بُدَّ أَنَّ وَالِدَهُ لَمْ يَرَهُ عِنْدَمَا كَانَ يَرْمِي الحصَى عَلَى كُوخِ الشَّيْخِ الأَعْمَى ، وَإِلّا لَكَانَ عَاقَبَهُ أَوْ حَتَّى عَاتَبَهُ عَلَى فَعْلَتِهِ ، فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسُهُ ، وَبَدَأَ يُفَكِّرُ بِكِذْبَةٍ ذَكِيَّةٍ يَقُولُهَا لِوَالِدِهِ ، ثُمَّ قَرَّرَ أَنْ يَقُولَ الحَقِيقَةَ ؛ فَقَدْ تَعَلَّمَ أَنْ يَقُولَ الحقِيقَةَ مَهْمَا تَكُنِ الظُّرُوفُ ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الصِّدقَ نَتِيجَتُهُ خَيْرٌ مِنَ الكَذِبِ .

ال زَيْدٌ لِوَالِدِهِ :« أَنَا آسِفٌ يَا وَالِدِي ، لَقَد كُنْتُ صَبَاحَ اليَومِ مَعَ الأَولَادِ الَّذِيْنَ رَمَوا
لحصَى عَلَى كُوخِ الشَّيْخِ الأَعْمَى ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ خَطَأٌ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى عَلَى
لِكَ ، وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ عَمَّا حَصَلَ مِنِّي ، وَأَعِدُكَ أَلَّا أُكَرِّرَ هَذَا الفِعْلَ مَرَّةً أُخْرَى ، إِنَّنِي
خَجِلٌ مِنْ نَفْسِي أَشَدَّ الخَجَلِ ».

وَضَعَ وَالِدُ زَيْدٍ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ ابْنِهِ وَقَالَ لَهُ :« لَقَد رَأَيْتُكَ عِنْدَمَا هَرَبْتَ مَعَ أَصْدِقَائِكَ ، وَحَزِنْتُ كَثِيراً بِسَبَبِ مَا قُمْتُمْ بِهِ مِنَ الأَذَى لِهَذَا الشَّيْخِ البَطَلِ ، وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أُعَاتِبَكَ ؛ لأَنَّنِي أَعْلَمُ أَنَّكَ إِنْسَانٌ مُؤْمِنٌ وَتَعْتَرِفُ بِخَطَئِكَ ، فَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:« خَيْرُ الخَطَّائِيْنَ التَّوَّابُونَ » وَالحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَم يُخَيِّبْ ظَنِّي بِكَ .

أَنَا آسِفٌ حَقّاً يَا وَالِدِي ، لَقَدْ كَانَ مَا فَعَلْنَاهُ مُشِيْناً ، كُنَّا نُرِيدُ أَنْ نَلْهُوَ وَنَتَسَلَّى بِإِزْعَاجِ الشَّيْخِ الأَعْمَى، كَانَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، وَلكِنْ قُلْ لِي يَا وَالِدِي: لِمَاذَا تُسَمِّي هَذَا الشَّيْخَ بِالبَطَلِ ؟ وَلِمَاذَا يَعِيْشُ وَحِيداً فِي ذَلِكَ المَكَانِ المَعْزُولِ؟.. لا بُدَّ أَنَّكَ تَعْرِفُهُ جَيِّداً ؛ لأَنَّكَ كُنْتَ فِي كُوخِهِ .

وَقَفَ زَيْدٌ وَأَبُوهُ عَلَى شُرفَةِ مَنْزِلِهِمَا ، وَأَشَارَ الوَالِدُ إِلَى كُوخِ الشَّيْخِ بَعِيداً خَارِجَ الحَيِّ ، وَبَدَأَ يَشْرَحُ لِزَيْدٍ قِصَّتَهُ :« عِنْدَمَا هَاجَمَ الأَعْدَاءُ بَلَدَنَا كُنْتُ طِفْلاً رَضِيْعاً ، وَمِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ نَسِيَنِي وَالِدِي وَإِخْوَتِي فِي بَيْتِنَا وَغَادَرُوا ، فَتَهَدَّمَ البَيْتُ عَلَيَّ بِسَبَبِ قَصْفِ الأَعْدَاءِ ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى سَلَّمَنِي ».

«كَانَ هذَا الرَّجُلُ مُجَاهِداً يُقَاتِلُ الأَعْدَاءَ ، وَبَيْنَمَا هُوَ يَختَبِئُ بَيْنَ البُيُوتِ المدَمَّرَةِ بِانْتِظَارِ الأَعْدَاءِ ، سَمِعَ صَوْتَ بُكَائِي ، فَبَحَثَ عَنِّي حَتَّى أَخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ الأَنْقَاضِ، وَحَمَلَنِي إِلَى أَهْلِي، وَفِي الطَّرِيْقِ رَكِبْنَا سَيَّارَةَ إِسْعَافٍ لَكِنْ لِلأَسَفِ الشَّدِيْدِ ضَربَتْ قَذِيْفَةٌ السَّيَّارَةَ ، فَمَاتَ السَّائِقُ وَفَقَدَ الشَّيْخُ بَصَرَهُ وَنَجَوتُ أَنَا مَعَ جُرحٍ فِي ذِرَاعِي».

كَشَفَ وَالِدُ زَيْدٍ عَنْ ذِرَاعِهِ ، وَنَظَرَ زَيْدٌ إِلَى الجرحِ وَقَالَ: «حَقّاً إِنَّهُ لَرَجُلٌ شُجَاعٌ ، لَقَدْ أَنْقَذَ حَيَاتَكَ ، فَضْلُهُ عَلَيْنَا جَمِيْعاً». رَدَّ عَلَيهِ وَالِدُهُ: «نَعَمْ يَا وَلَدِي ، وَلِذلِكَ بَنَى لَهُ جَدُّكَ ذَلِكَ الكُوْخَ قَبْلَ سِنِينَ طَوِيْلَةٍ ، وَظَلَّ يَخْدِمُهُ كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى كَبِرتُ أَنَا وَصِرتُ أَذْهَبُ بَدَلاً عَنْه».

عَرَفَ زَيْدٌ كَمْ هُوَ عَظِيمٌ ذَلِكَ الشَّيْخُ الأَعْمَى ، وَشَعَرَ بِالحزْنِ وَالنَّدَمِ الشَّدِيْدِ لِمَا فَعَلَهُ بِهِ هُوَ وَأَصْدِقَاؤُهُ ، عِنْدَهَا أَدْرَكَ أَيْضاً أَنَّ وَالِدَهُ إِنْسَانٌ وَفِيٌّ وَعَظِيْمٌ ، فَاحْتَضَنَهُ بِذِرَاعَيْهِ طَوِيْلاً وَهُوَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ : إِنَّهُ وَلَدٌ مَحْظُوظٌ بِأَبِيْهِ .

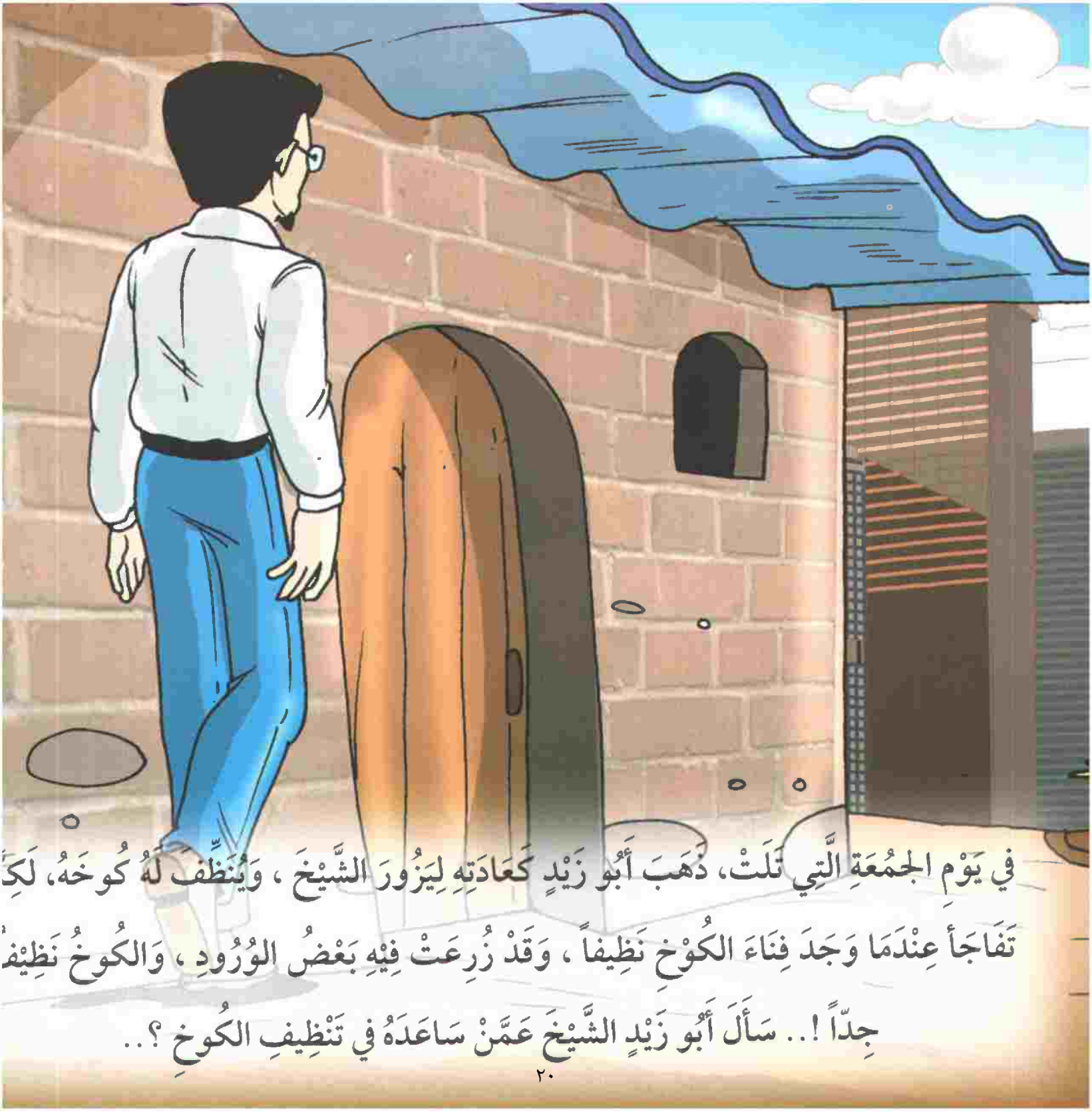

في يَوْمِ الجُمُعَةِ الَّتِي تَلَتْ، ذَهَبَ أَبُو زَيْدٍ كَعَادَتِهِ لِيَزُورَ الشَّيْخَ ، وَيُنَظِّفَ لَهُ كُوخَهُ، لَكِ
تَفَاجَأَ عِنْدَمَا وَجَدَ فِنَاءَ الكُوخِ نَظِيفاً ، وَقَدْ زُرِعَتْ فِيهِ بَعْضُ الوُرُودِ ، وَالكُوخُ نَظِيفٌ
جِدّاً !.. سَأَلَ أَبُو زَيْدٍ الشَّيْخَ عَمَّنْ سَاعَدَهُ فِي تَنْظِيفِ الكُوخِ ؟..

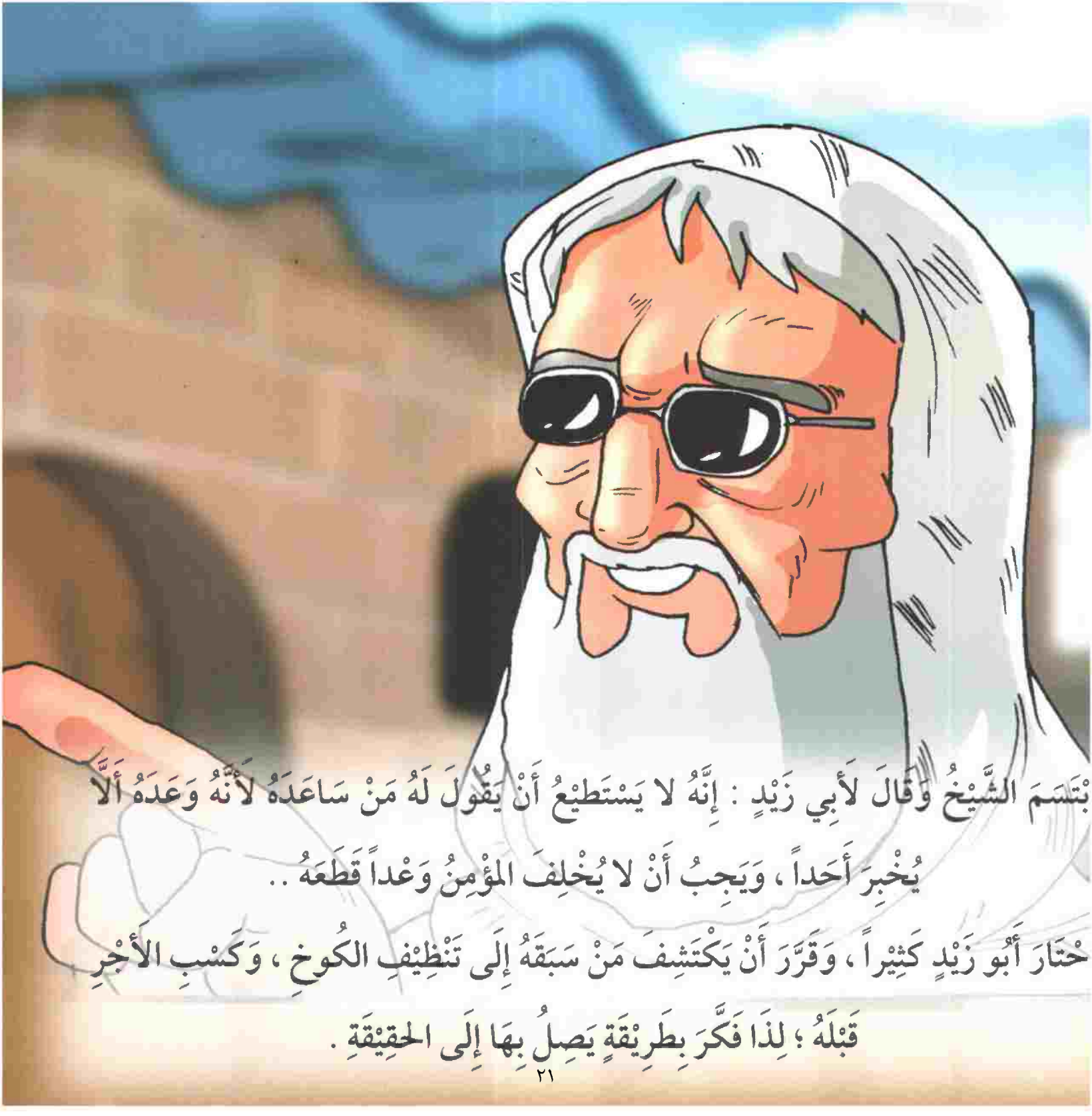

بْتَسَمَ الشَّيْخُ وَقَالَ لأَبِي زَيْدٍ : إِنَّهُ لا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَقُولَ لَهُ مَنْ سَاعَدَهُ لأَنَّهُ وَعَدَهُ أَلَّا يُخْبِرَ أَحَداً ، وَيَجِبُ أَنْ لا يُخْلِفَ المؤْمِنُ وَعْداً قَطَعَهُ ..

حْتَارَ أَبُو زَيْدٍ كَثِيْراً ، وَقَرَّرَ أَنْ يَكْتَشِفَ مَنْ سَبَقَهُ إِلَى تَنْظِيْفِ الكُوخِ ، وَكَسْبِ الأَجْرِ قَبْلَهُ ؛ لِذَا فَكَّرَ بِطَرِيْقَةٍ يَصِلُ بِهَا إِلَى الحقِيْقَةِ .

في يَوْمِ الجُمُعَةِ الَّتِي تَلَتْ ، خَرَجَ أَبُو زَيْدٍ عَقِبَ صَلاَةِ الفَجْرِ مِنَ المَسْجِدِ ، وَمَشَى وَالشَّمْسُ لَمْ تُشْرِقْ بَعْدُ إِلَى بَيْتِ الشَّيْخِ ، واخْتَبَأَ وَرَاءَ صَخْرَةٍ قَرِيْبَةٍ وَرَاقَبَ الكُوخَ وَقَبْلَ أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ رَأَى مَجْمُوعَةً مِنَ الأَوْلاَدِ يَدْخُلُونَ كُوخَ الشَّيْخِ وَيُسَاعِدُونَهُ فِي الوُضُوءِ ، ثُمَّ بَدَؤوا بِتَنْظِيْفِ الكُوخِ مِنَ الدَّاخِلِ وَالخَارِجِ .

فَتَرَبَ أَبُو زَيْدٍ مِنَ الكُوخِ فَرَأَى زَيْداً يَسْقِي الوُرُوْدَ المزْرُوعَةَ في فِنَاءَ الكُوخِ ، وَبَعْدَ قَلِيْلٍ
رَجَ بَقِيَّةُ أَصْدِقَائِهِ لِيُلْقُوا القُمَامَةَ في الخَارِجِ ، فَفُوجِئُوا لِرُؤيَةِ أَبِي زَيْدٍ الَّذِي سَلَّمَ عَلَيْهِمْ
وَصَافَحَهُمْ بِحَرَارَةٍ وَاحِداً وَاحِداً ،وَقَبَّلَ زَيْداً عَلَى جَبْهَتِهِ .

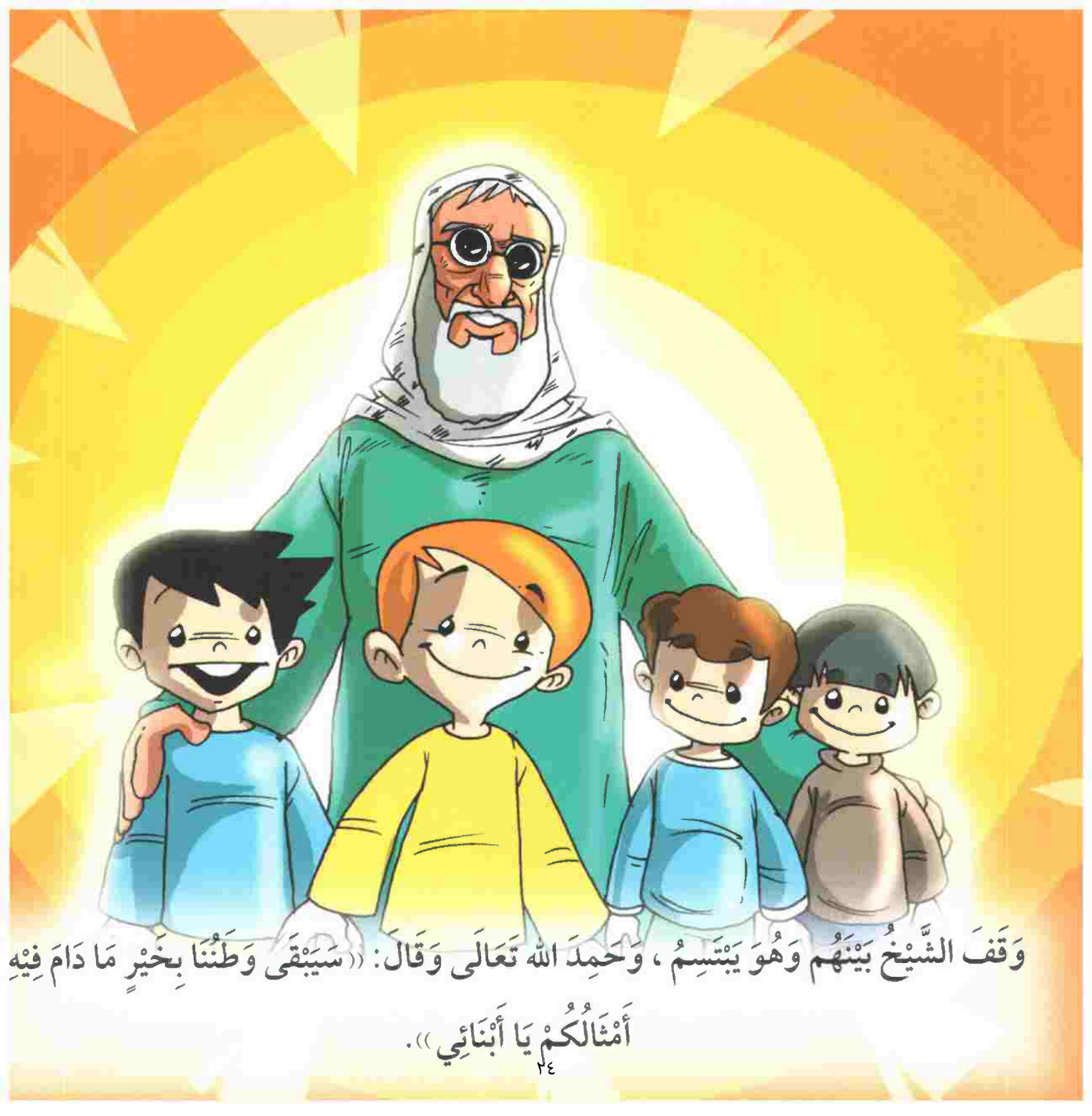

وَقَفَ الشَّيْخُ بَيْنَهُم وَهُوَ يَبْتَسِمُ ، وَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَقَالَ: «سَيَبْقَى وَطَنُنَا بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيهِ أَمْثَالُكُمْ يَا أَبْنَائِي».